

(03) — المشكلة الثالثة : { في الشعور واللاشعور }

تصميم الدرس

الوضعية المشكلة:

تحليل الوضعية :

I. الشعور و الحياة النفسية:

I / أ الشعور باعتباره معرفة مباشرة وأولية ؛

I / ب الشعور وحدة في كثرة / وتغيّر في اتصال ؛

I / ج الشعور كمبدأ وحيد للحياة النفسية .

II. اللاشعور و بنية الحياة النفسية:

II / أ ملابسات اكتشاف اللاشعور ؛

II / ب دلالة توصيف الجهاز النفسي .

II / ب / 1 من الصراع إلى التوازن النفسي ؛

II / ب / 2 مستويات الجهاز النفسي .

III. من الليبيدو إلى الغريزة العدوانية :

IV. فرضية اللاشعور بين العلم و الفلسفة:

IV / أ بين المنهج العيادي والتفسير النظري ؛

IV / أ / 1 التحليل النفسي كمنهج عيادي ؛

IV / أ / 2 نظرية اللاشعور من الوجهة التفسيرية .

IV / ب الفرضية والفرضيات المضادة :

تطبيق : — مقالة فلسفية

أمامك ،أيها الطالب، الحلم التالي عرضه الفيلسوف و عالم النفس "إيريك فروم" إنه حلم يتعلق بشخص في مقتبل العمر رأى في حلمه أن رجلا « تحول إلى حجر.فجاءت امرأة نحاة فقصبت الحجر واستخرجت منه ملامح التمثال. فجأة دبّت الحياة في التمثال و مشى نحو المرأة النحاة مهددا متوقعا.نظرت و أنا مرتعب، وشاهدت مقتل المرأة على يد التمثال. ثم إنه نظر إلي. و خطرت لي فكرة: إذا أنا نجحت في إدخاله إلى القاعة التي يجلس فيها أهلي و أقاربي فأنني أتخلص من شره. كان أهلي جالسين هناك برفقة بعض أصدقائهم. لكنهم رأوني أصارع من أجل الحياة؛ ومع ذلك لم يصدر عنهم إلا نظرة لا مبالية. فكرت عندئذ: " لعمري! كان علي أن أدرك منذ زمن بعيد أن أمري لا يهمهم! " ثم افتر ثغري عن ابتسامة متهللة.»

هنا ينتهي الحلم، و لتحليل هذا الحلم يقول "إريك فروم" من الضروري أن نحيط ببعض المعلومات بشخصية الحالم من أجل فهم هذا الحلم.

إنه طبيب له من العمر 24 عاما، يعيش تحت سيطرة أمه، كان محبوبا في مكان عمله لكنه كان يشعر دائما بالتعب و الإنهاك و الإعياء، و لا يجد أسبابا كافية تحدوه إلى التمسك بالحياة. إنه ابن مطيع يظل جالسا في البيت يفعل ما تتوقعه أمه ... و ذات يوم و بينما كانت أمه تشدد أكثر من عاداتها في هذه الناحية، انتابه الغضب

تجاهها. فأعربت له أنها عانت عناء شديدا من هذا الغضب، و بينت له أنه ولد عاق بحيث تحول غضب الشاب إلى سيل من تأنيب الضمير و الخضوع الأعمى أكثر من ذي قبل.

و في عشية الليلة التي رأى فيها الحلم كان قد قضى وقتا بانتظار المترو. فشهد ثلاثة شبان من عمره يثرثرون على رصيف المحطة. و كان هؤلاء الشبان على الأرجح مستخدمين عائدين إلى منازلهم بعد انقضاء يوم العمل. و كانوا يتحدثون عن "رب عملهم". فسمع أحدهم يقول إنه كان محظوظا إذ حصل على زيادة في الأجر لأن مديره على حد قوله كان يحبه. وسمع الآخر يقول إن المدير كان يتحدث معه في الأيام الأخيرة عن شؤون السياسة ... كانت كل الأحاديث تعكس ذلك الطابع الروتيني الرتيب الفارغ الذي يطبع حياة الناس ... كان صاحب الحلم يراقب هؤلاء الشبان. فجأة خطرت له فكرة: "هذا أنا و هذه حياتي! فأنا لست أفضل من هؤلاء المستخدمين في شيء. إنني أشبه بالميت" و حصل الحلم في الليلة التالية.

تحليل الوضعية :

لنتابع تحليل الحلم ، مع إريك فروم" ، يقول: لم يكن الشاب يملك شعورا بذاته، لذلك يشعر كأنه ميت. والمرأة التي في الحلم هي رمز لأمه التي فعلت به ما تفعل المرأة في الحلم بالحجر و هي تحته. ... و رغم أنه كان يشتكي في حياة اليقظة، من متطلباتها، فلم يكن يعي رغم ذلك إلى أي حد قد قلوبته و كيافته وجعلته ملكها. وهكذا كان الحلم من حيث ما ينطوي عليه من حدس ينبئه بأحواله و بوضعه الخاص و بالدور الذي تلعبه أمه في حياته. و منذ ذلك الحين أخذت أوضاعه تتبدل. فظهر الحالم و كأنه يقوم بدورين (وهذا كثيرا ما يحصل في الحلم).فهو من جهة مراقب يلاحظ ما يحصل و من جهة أخرى، هو تمثال تدب فيه الحياة و يعتمد في نوبة من غضب عارم إلى قتل المرأة التي نحتته. إنه يعبر بذلك على نقمته على أمه، و هي نقمة كانت إلى ذلك الحين مقموعة قمعا تاما. والواقع أنه لم يكن له و لا لأي شخص آخر أن يفكر في إمكانية أن تكون أمه هي الهدف الذي ينصب عليه العنف. لقد عاش هذا الغضب في الحلم لا بوصفه غضبه الخاص، بل بوصفه غضب التمثال الذي دبب فيه الحياة. فكان أن أصيبت "أناه" المشاهدة من مرأى هذا العنف الذي صدر عن الرجل المهتاج، الذي ما لبث في نوبة غضبه أن ارتد عليه هو الآخر.

إن انشقاق الشخص الواحد إلى شخصين على هذا النحو، و هو أمر يظهر في هذا الحلم بكل وضوح، اختبار يعيشه كل منا إلى هذا الحد أو ذاك من الوضوح. إن الحالم يخشى من عنفه الخاص. والواقع

أن غضبه بعيد كل البعد عن فكره الواعي بحيث أنه يعتبر هذا الشخص الهائج الذي أطلق العنان لغضبه ونقمته شخصا مختلفا عنه كل الاختلاف. غير أن الشخص الغاضب ما هو إلا (هو) المنسي؛ الناقم؛ الذي عاد إلى الحياة في الحلم. أما الحالم و المشاهد، أي الشخص الذي يشعر، خلال حياته اليومية، بأنه مهدد من قبل غضبه و يخاف، بالتالي، منه؛ فهو الذي يرتعب من نفسه. و هكذا يأخذ الصراع مع ذاته؛ آملا في أنه إذا نقل الصراع، أي "العدو"، إلى القاعة التي يجلس فيها أهله، يتخلص من شره. إن هذه الفكرة تعبر عن الرغبات نفسها التي تحكم حياته.

إن هذا الحلم يحتوي على خليط من البواعث. لقد خطرت حدوس عميقة حول نفسه بالذات؛ و حول ذويه. حدوس تخطت كل ما كان يعرفه حتى ذلك الحين. إنه يرى نفسه؛ هو الكائن المتحجر الذي يكاد يكون ميتا، يرى كيف قولبته أمه و كيفته حسب رغباتها الخاصة، و عرف أخير كيف ا، الآخرين قلما يهتمون به، و قلما يكونون قادرين على مساعدته. هكذا نستطيع أن نقول أن الحلم لم يكن، حتى الآن من الأحلام التي يرمي مضمونها إلى تلبية رغبة ، بل من أحلام الحدس. غير أنه ينم أيضا عن عنصر من عناصر تلبية الرغبات. فالغضب الذي كُبتَ

في اليقظة جاء ليحتل موقع الصدارة من الحلم، ورأى الحالم نفسه قادرا
كل المقدرة على قتل أمه. وهكذا فهو يلبي في الحلم رغبته في الانتقام¹.



الحلم لغة رمزية يعبر عن رغبت مكبوتة

أمام هذا الحلم و تفسيره
نجد أنفسنا في مواجهة وضعية حرجية.
إن الفلسفة التي قامت على مركزية
الشعور(الوعي) منذ عصر النهضة،
وعلى كون الإنسان حرا وقادرا على
التحكم في سلوكه (وجسده) و من ثم
فهو مسؤول عن كل ما يصدر منه، و
هذه الفلسفة تلخصها عبارة ديكارت "
أنا في جسدي كالربان في السفينة"،

تجد نفسها مهددة بنظرة جديدة يتراجع فيها الأنا الذي يملأه الشعور
(الوعي) و ينقسم هذا الأنا على ذاته فهو في حياته اليقظة (الشعور)
يرفض العنف لكنه في الحلم (اللاشعور)،هو يميل إلى الانتقام والعنف. و
بهذا يعيش الأنا صراعا، ولكنه صراع يفلت من رقابة الشعور. ومع ذلك
فهو يترك بصماته على الحياة الواعية، حياة اليقظة : " هذا أنا وهذه
حياتي! فأنا لست أفضل من هؤلاء المستخدمين في شيء، إنني أشبه
بالميت".

1— اريك فروم اللغة المنسية / مدخل إلى فهم الأحلام و الحكايات و الأساطير.
ترجمة حسن قبيسي: المركز الثقافي العربي / الطبعة الأولى 1992 ص - ص

وأمام هذه الوضعية ،أخي الطالب، نجد أنفسنا مدفوعين
للتساؤل: هل النفس هي جوهر بسيط يدعى "الأنا" كما تقول الفلسفة
الكلاسيكية؟ أم أن النفس هي جهاز شديد التعقيد؟

وإذا كان جهازا، فهل مكونات هذا الجهاز و وظائفه
متكاملة و متفاعلة أم أنها في صراع دائم؟ و إذا كانت في صراع فمن أين
تحصل النفس على توازنها الظاهر؟

و قبل ذلك هل ما هو نفسي هو شعوري أم أن الحياة النفسية
تتعدى ما حدود ما نشعر به؟

أخي الطالب: إن هذه الأسئلة وأخرى غيرها سيتم
معالجتها والإجابة عنها من خلال محاولة حلنا للمشكلة الرئيسية، وهي:
هل تقتصر حياتنا النفسية على ما هو شعوري فقط أم أنها تشمل ما هو لا
شعوري أيضا؟

I. الشعور و الحياة النفسية:

I / أ الشعور باعتباره معرفة مباشرة وأولية :

لو عدت، أيها الطالب، للوضعية السابقة ستلاحظ أن الطبيب الشاب كان يشعر دائماً بالتعب و الإنهاك و الإعياء، و لا يجد أسبابا كافية تحدوه إلى التمسك بالحياة. إذن كان هذا الشاب تعيسا وتعاسته لا تعود لظروفه فحسب، وإنما بسبب شعوره بهذه الظروف أيضا. إن طبيعة شعورنا بالظروف يزيد من مأسويتها أو يخفف من تلك المأسوية. وشعور بهذا الحجم من الأهمية و الخطورة من الضروري أن نتساءل عن طبيعته.

1. الشعور معرفة أولية :

إن اعتبار الشعور¹ (الوعي) بمثابة الحدس أو الإطلاع المباشر دون وسائط على الحياة النفسية الباطنية، لا يمكن أن يكون إلا مفهوما تقريبا² لكونه يمثل كما رأى هاملتون³: « ..أحد المعطيات الأساسية للتفكير، والذي لا يمكن تحليله إلى عناصر أبسط ؛ ومن هنا

1- (conscience psychologique).

2- André Lalande ,Vocabulaire technique et critique de la philosophie , Vol .I. sixième édition , Quadrige / PUF, p , 173

3- هاملتون (1856-1788 Hamilton) فيلسوف اسكتلندي من أهم مؤلفاته : الميتافيزيقا

<http://www.onefd.edu.dz>

فالشعور لا يُعرَّف؛ يمكننا أن نعرِّفَ (نحن) بوضوح ما الشعور، لكننا لا نستطيع دون خلط أن ننقل للغير ما نعيه بوضوح . والعلة في ذلك بسيطة: إن الشعور هو جذر كل تفكير " ¹.

2. الشعور معرفة ذاتية :

لو تقارن، أيها الطالب، بين معايشة الأحوال النفسية؛ التي هي إدراك لعالمنا الداخلي، وبين إدراكنا لموضوعات العالم الخارجي؛ ستلاحظ أن شعورنا بذاتنا يختلف عن ملاحظة ظواهر العالم الخارجي، ذلك أنه أثناء ملاحظة العالم الخارجي تلاحظ الذات تمايزها واستقلالها عن الظواهر الملاحظة ؛ إنها ظواهر تتميز بالشيئية، فالذات تعي أن ما تلاحظه غير ماهيتها وكيونيتها. أما **حدس الأحوال الباطنية ومعايشتها فهي تجعلنا ندرك بوضوح أننا والحادث المعيش أمر واحد ، فكلاهما عين الآخر ؛ فأنا الحزين وأنا المحب وأنا المريد أنا وحدي من يعاني ذلك وأنا أدرى الناس بأحوالي ، وبدون وسائط أعي بوضوح ما يجري في أعماقي ولا يمكن لغيري الإطلاع على ما يجري في أعماقي، وكلّ عواطف وذكرياتي هي أحوال شعورية خاصة بي، فهي عالمي أنا وحدي، لا يمكن لأحد الإطلاع عليها بصورة مباشرة و حميمية إلاّ شخص واحد هو أنا ². ولا يمكنني كذلك الإطلاع على ما يجري في أعماق غيري إلاّ عبر طريق غير مباشر ؛ باللغة أو السلوك الظاهر .**

Lalande , p , 174 - 1

<http://www.onefd.edu.dz>

2- جميل صليبا ، علم النفس ، ص ، 117 ، 118 .

وهكذا فالشعور حميمي وذاتي، إذ يصعب علينا في الكثير من الحالات نقل مشاعرنا بصدق فتخوننا اللغة ونلجأ إلى الأساليب غير مباشرة ، إنها أمور تُعاش ولا تُوصف ، وتُعرف دون أن تُعرف .

I / ب الشعور وحدة في كثرة / وتغير في اتصال :

إن للشعور صوراً وصفات متنوعة، لكن وحدته لا تنقسم؛ فكيف نزيل هذا التعارض؟

1. من الشعور العفوي إلى الشعور الإرادي:

تظهر الحالات النفسية في الشعور العفوي، بثوبها الطبيعي المجرد من كل تأمل؛ فالفرح والحزن والخوف والغضب حالات نعيشها وهي ظواهر متصلة يشترك فيها الطفل والإنسان البدائي والإنسان المتحضر، وهذه الحالات تقفز إلى ساحة الشعور ويسيرها في الغالب قانون التداعي الحر¹، فنقول عن هذه الحالات الشعورية أنها حالات عفوية تلقائية .

أما حين نعود إلى أنفسنا ونتأمل بشكل قصدي ونمنع النظر فيما نعيشه لتصبح الموضوعات التي نفكر فيها حقائق واضحة تشبه

1- مصطلح نفسي يتعلق بنمط من الأفكار تتسبب تبعاً دون إرادة أو رابط منطقي ينعقد بينها ؛ كما يلاحظ في بعض العمليات العفوية في التذكر أو التخيل ،
أو في جلسات التحليل النفسي العيادية .
<http://www.onefd.edu.dz>

إلى حد بعيد موضوعات العالم الخارجي¹، كُنّا إزاء الشعور الإرادي؛ والفرق بين الشعور العفوي والإرادي هو أن العفوي حالاته انفعالية أو عقلية أو فاعلة، أمّا الإرادي فلا يمكن لحالاته أن تكون إلا عقلية تأملية².

ونخلص إلى أن الشعور العفوي يتميز بالبساطة بينما الشعور الإرادي هو شعور مركّب؛ ذلك أن الشعور الإرادي إنّما يقوم على الشعور العفوي، والنسبة بينهما كنسبة الإحساس إلى الإدراك، ووظيفة الشعور العفوي بالنسبة للشعور الإرادي في إدراك الحياة الباطنية كوظيفة الإحساس في إدراك العالم الخارجي.

2. طبيعة الشعور المتنوّع :

لنتمعّن في هذه الخواطر التي سجّلها وليام جيمس (W. James 1910-1942) ذات مرّة:

« كثيرا ما ننقل من إحساس بصري إلى إحساس سمعي، ومن حكم إلى عزم، ومن ذكرى إلى أمل، ومن حب إلى بغضاء [...] ولشّد ما يختلف إدراكنا للأشياء بحسب ما نكون أيقاظاً أو نعاساً، جياعاً أو شباعاً، في الراحة أو في التعب. فيتبدّل شعورنا بالأشياء بين عشية وضحاها، أو بين الصيف والشتاء، أو بين الطفولة والشباب والشيخوخة

1- فمثلا : اللذة كحالة وجدانية هي حالة شعورية عفوية ، لكن التفكير فيها هو حالة شعورية إرادية.

2- جميل صليبا، علم النفس ، ص — 142. ومن ذلك أن شعورنا بألم نفسي هو حالة انفعالية، أما التفكير في الألم ذاته فهو حالة عقلية.

[...] وكثيراً ما نعجب لتبدل قيم الأشياء في أعيننا، فيدهشنا اليوم ما اتخذناه أمس من الأحكام، ونرى الأشياء كلّ عام ، بألوان جديدة، فيغدو الخيالي حقيقياً، والمهمّ تافهاً ، ويخيل إلينا أن أحبّابنا الذين لم نرغب في الحياة إلّا من أجلهم ، قد انقلبوا اليوم إلى ظلال زائلة . فكيف صارت هذه النساء ، وتلك النجوم، والغابات ، والمياه، قائمة تافهة، بعد أن كانت إلهية ساحرة؟ وكيف زال حسن تلك الغادات¹، وخبأ ذكرها بعد أن كانت تحرك في نفوسنا نسمات اللانهاية ؛ أين ذهبت أسرار معاني (غوته)² العميقة ؟ [...] إن ما كان يفتننا ويحمّسنا من قبل ليُمِلُّنا اليوم ببرودته القاسية، فنستقل تغريد الطير، ونجد نسيم الصباح محزناً، والسماء مظلمة " ³.

نستنتج مما سبق أن للشعور صفات منها :

- أنه تيار متدفق لا يعرف السكون وإن تعددت درجاته ؛
والحياة النفسية تتغير من حال إلى حال فهي لا تسير في خط مستقيم
والتعارض القائم بين الحالات النفسية هو ما يمكّننا من إدراكها بوضوح،
فنحن لا نكتشف قيمة الشيء إلّا بعد فقدانه ؛ فقيمة الصحة تدرك بوضوح
في حالة المرض، ولحظات السعادة تكتشف في لحظات الشقاء، فكل
الحالات النفسية محكومة بقانون النسبية، ولو سارت الحياة النفسية على
نمط واحد لما استحققت أن تُعاش.

1- الغادات = جمع غادة وهي الفتاة البالغة الحسن .

2- (Johann GOETHE 1749-1830) أديب وشاعر ومفكر ألماني، من مؤلفاته

: فوست.

<http://www.onefd.edu.dz>

3- وليم جيمس : مختصر علم النفس ، ص ، 199-201 .

- وأنه لا يعرف الانقطاع وإن تنوعت دروبه، و اختلفت موضوعاته، ولا يزول ولو في حالات الغيبوبة؛ فهو يقوى ويضعف لكنه لا ينقطع. كما أن له درجات؛ ومجالها بين الغيبوبة العميقة واليقظة وشدة الانتباه، وبينهما الحذر القصدي والحذر البسيط ، والنوم الخفيف (الغفوة) والنوم مع الأحلام، والنوم العميق¹، ووسط هذا التغير لا يعرف الانقطاع، وبذلك فإن الشعور شبيه بسيلان وتدفق دائم الحركة ؛ إنه ديمومة².

- وأنه زماني لا مكاني ، وكيفي لا كمّي ، إننا نعيشه ولكننا لا نقدر على تحديد مكانه ؛ إنني أحب وطني و أشعر بذلك لكنني لا أستطيع تحديد مكن له في بدني، و لا أستطيع تحديد مقدار له. إنه لا يقبل التحديد المكاني و القياس ولا التكرار ولا يقبل التجزيء، وهو بذلك ديمومة محضة³ وكون الشعور لا يتوقف عن الحركة و التغير فهو يرتبط بالزمن النفسي و ليس بالزمن الموضوعي الذي يُقاس بحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس أو بحركة عقارب الساعة. والزمن النفسي هو تجدد دون انقطاع ، ولحظاته المتعاقبة يدخل بعضها في بعض حتى تؤلف

1-J. DELAY. dictionnaire de la psychologie . (la rousse). P 75.

2- أو (durée) . والمصطلح لـ (Henri Bergson 1859-1941) الفيلسوف الفرنسي المعروف. ويعني في أبسط معانيه انعدام التقطعات والشغرات في تيار الشعور المتجدد باستمرار، مع تداخل بين مراحله الزمنية إلى الحد الذي لا يمكننا الحديث إلا عن زمان نفسي خاص وأنا عميق يدرك بالحدس فقط.

3- يقول برغسون: "الديمومة المحضة هي الديمومة الواقعية ، الديمومة التي تعاش

فعلا . " أنظر: Vocabulaire technique et critique de la philosophie

<http://www.onefd.edu.dz>

جميع الحقوق محفوظة
Lalande , vol 1 , p, 255

كتلة واحدة، فهي إذن زمان مشخّص لا زمان مجرد كما في الزمان الموضوعي المنقسم إلى وحدات متساوية¹.

- وأنه ملازم للشخصية وغير مفارق لها بل هو جزء منها؛

فلا يمكن أن توجد الرغبات بمعزل عن الذات الشاعرة ، والنعمة الواحدة تحدث في الناس إحساسات ومشاعر مختلفة بحسب اختلاف الأشخاص.

- كما أنه انتقائي ؛ ذلك لأن فاعلية النفس محدودة إذ ليس

بمقدورها الإحاطة بكل ما يمرّ في ساحة الشعور أو ما يظهر في العالم الخارجي ، فتلجأ لاصطفاء ما يلائمها وما يوافق أحوالها وتهمل ما لا يناسبها .

I / ج الشعور كمبدأ وحيد للحياة النفسية :

لعلّك ،أيها الطالب، عشت تجربة أو سمعت عن تجربة عاشها غيرك حيث كان صاحب هذه التجربة موضوع حكم الآخرين، كأن يوصف بأنه بخيل أو مبذر، أو يوصف بأنه جبان أو متهور، أو يوصف بأنه خامل أو مفرط النشاط، أو غيرها من الأحكام التي لا ترضي غرور الذات، فتجد الشخص ينتصب مدافعا عن نفسه قائلا لأولئك الذين يصرون عليه الحكم، لكنكم لا تعرفونني أكثر من معرفتي بنفسي.. أنا أعرف نفسي وأعرف من أكون. ومثل هذه التجربة دفعت بشاعر كبير

مثل "نزار قباني" في كتابه قصتي مع الشعر إلى كتابة العبارة التالية:
«إني أكتب قصتي مع الشعر كي لا يفصلني النقاد على هواهم».

في مثل هذه التجارب التي لا تخلو منها حياة الواحد منا،
تبدو لنا ذواتنا (أنفسنا)، و لكنها شفافة لذاتها. أي أننا نعرفها جيدا و نعرف
كل ما فيها، و نعرف كل ما ينتابها، و بالتالي ما لا نعرفه منها نجزم بأنه
غير موجود فيها.

هل معنى هذا أن الشعور وحده أساس للحياة النفسية وأنه
يحيطنا علماً بكل حوادثها؟ أليست هذه التجارب تخفي كبرياء الذات
الزائف؟! أليست النفس أكثر غموضا مما نعتقد؟ و ما الذي يبرّر أن الذات
شفافة لذاتها؟

اجتهد "ديكارت" في نصوص مختلفة لإثبات هذه الأطروحة،
والنص الذي نضعه بين يديك، أخي الطالب، هو بعض هذه الاجتهادات،
فلنتأملها سويا. قال في كتاب تأملات ميتافيزيقية: « لما كنت أعرف أن
جميع الأشياء، التي أأدّهنها¹ بوضوح، وتميّز، يمكن لله أن يوجد لها على
نحو ما أأدّهنها، فيكفي أن أأدّهن شيئا بدون شيء آخر، حتى أتأكد أن
الشيئين متميزان أو متغايران. إذ من الممكن أن يوجدان منفصلين على
الأقل بقدره الله الواسعة. ولا أهمية لمعرفةتي بأية قوة يحصل هذا
الانفصال كي أضطر إلى الحكم عليهما بأنهما متغايران. وإذا انطلقت
من تأكيد معرفتي أنني موجود [...]، و أنني جوهر كل ماهيته أو طبيعته

أن يفكر، ليس إلا[...]. ، فلدي فكرة واضحة متميزة عن نفسي، باعتبار
أني لست إلا شيئاً مفكراً لا شيئاً ممتدّاً، ولدي أيضاً فكرة متميزة
عن الجسم ، باعتبار أنه ليس إلا شيئاً ممتدّاً لا شيئاً مفكراً. لذا ثبت عندي
أن هذه الأنا، أعني نفسي التي بها أكون أنا ما أنا، تتميز عن جسمي
تميّزاً تامّاً حقيقياً ؛ هي قادرة على أن تكون أو أن توجد بدونه»¹.

تلاحظ ، أخي الطالب، أن هذا النص هو نص استدلالى،
ينطلق فيه "ديكارت" من مسلمتين هما :

*إذا كنت أدرك الأشياء بوضوح و تميّز، فإن تلك الأشياء
توجد على نحو ما أدركها عليه.

*إن قدرة الله الواسعة هي التي تضمن أن ما أدركه
من الأشياء بوضوح و تميز هو موجود على نحو ما أدركه.

و يستنتج من هاتين المسلمتين أنه إذا أدرك شيئين، بوضوح
و تميّز، أحدهما دون الآخر لزم أنهما متمايزان و متغايران، بل و قد
يكونا منفصلين بقدرة الله كما يقول.

و جعل من هذه النتيجة مقدمة ضمنية لاستدلال ثانٍ يمكن
صياغته على النحو التالي:

1- ديكارت ، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى ، ترجمة / كمال الحاج ،
منشورات عويدات ، ص — 227 ، 228 . وهذا هو منطوق النظرية الكلاسيكية
في الشعور كحقيقة وحيدة تؤسس الحياة النفسية .
<http://www.onefd.edu.dz>

بما أن أدراك شئئين، أحدهما دون الآخر، لزم أنهما متميزان
و متغايران.

و بما أنه متأكد من أن (أنا) موجودة، و أن (ها) شيء مفكر،
و ليست شيئاً ممتداً، و لديه فكرة متميزة عن الجسم أنه شيء ممتداً وليس
شيئاً مفكراً.

إن (فأنا) مختلف عن (جسم) ه ، و يمكن لهذه "الأنا" أن
توجد دون جسم.

وعلى هذا النحو يثبت "ديكارت" أن الإنسان هو حصيلة
اجتماع جوهرين متميزين "أنا مفكرة" و "جسم ممتد".

و الفكر عند "ديكارت" يساوي الشعور، و بالتالي فلما كانت
"كل ماهية الأنا" هي أنها تفكر، لزم بالتعدي أن " كل ماهية الأنا" تشعر،
أي لا يمكن أن يوجد شيء في الأنا و لا تشعر به.

و هكذا فإنّ القول باللاشعور هو قول متناقض، لأنّ الشعور
يملاً النفس وبالتالي فإنّ كل ما في النفس تعرفه هذه النفس ، و إذا كان
اللاشعور النفسي موجوداً لا بد أن تعرفه أي تشعر به النفس، و في هذه
الحالة يكون اللاشعور شعوراً ، و هو تناقض. إذن لا وجود لحياة نفسية
لاشعورية .

و لما كان الجسم متميزا و منفصلا عن النفس، فلا يلزم أن
تشعر النفس بكل ما فيه؛ أي قد تحدث في الجسم أمور لا تشعر به بسبب أنه
منفصل عنها و من طبيعة غير طبيعتها.

و عليه يمكن أن نستنتج، أنه لا وجود في "الأنا" لما لا يشعر به
"الأنا"، أما اللاشعور الوحيد في حياة الإنسان هو الذي يعود إلى جسده.

ولم تكن الفلسفة الكلاسيكية وحدها التي رفضت فكرة اللاشعور
النفسي، فهناك بعض الفلسفات المعاصرة فعلت ذلك أيضا. و من الذين
رفضوا فكرة اللاشعور في الأزمنة المعاصرة الفيلسوف الفرنسي "آلان"
Alain قال: « في الخصومات المتعلقة باللاشعور حيث لا أترجع في
موقفي قيد أنملة... لا تعدو أن تكون المسألة، مسألة ألفاظ».

أما "جون بول سارتر" - و هو أحسن من يمثل الوجودية الفرنسية - رفض
فرضية اللاشعور، قال: « إن التحليل النفسي الوجودي [يقصد نظريته
الوجودية] يستبعد فرضية اللاشعور ، فالظاهرة النفسية متاخمة للشعور».

بالنسبة لأصحاب هذا الطرح جعلوا من الشعور مرادفا
للمعرفة، و إذا كنت لا أحكم على الشيء أنه موجود إلا إذا عرفت أنه
موجود (أي شعرت بوجوده) و بالتالي فمن التناقض القول باللاشعور لأن
هذا يستدعي الشعور به. لكن ليس بين المعرفة و الشعور ترادف ولا
تضاييف. فإذا كان بالفعل أن كل ما نشعر به نعرفه، فعكس القضية غير
صحيح أي ليس كل ما نعرفه نشعر به، إذ يمكن أن نعرف الموجودات من
خلال آثارها لا من خلال شعورنا بها هي ذاتها. ولولا هذا الاستدلال لبطلت
كثير من المعارف.

II. اللاشعور و بنية الحياة النفسية

أيها الطالب : لو أنك عدت إلى الوضعية التي عرضناها في بداية هذه المشكلة، ستكتشف أن الطبيب الشاب صاحب الحلم، كانت لديه ميول لكنه لم يكن يشعر بها. إنه في حياة اليقظة، أي تلك التي يوجّهها ويسيطر عليها الشعور، يبدو الشاب في أتم الخضوع لأمه غير متمرد و لا يشعر بأي رغبة في الانتقام من هذه الأم التي شكلت جميع تفاصيل حياته، لكن حلمه يخبر بميول أخرى [تتصف بالتمرد و الانتقام] لم تتمكن من الظهور على ساحة الشعور بسبب الكبت، و لكن هذه الميول و إن لم تظهر بذاتها فآثارها موجودة و ظاهرة في حياة الشاب فهو "كان يشعر دائما بالتعب و الإنهاك و الإعياء، و لا يجد أسبابا كافية تحدوه إلى التمسك بالحياة"، وهذا الإعياء الدائم و الذي لا يعرف له سببا ظاهرا، ما هو في النهاية سوى أثر من آثار ما كان يكتبه من ميول انتقامية تجاه أمه. وهذا يعني أن هناك مجالا من حياتنا النفسية لا يصل إليه نور الشعور، ذاك الذي يسميه علماء النفس المعاصرون باللاشعور.

II / أ / ملاحظات اكتشاف اللاشعور :

1. وجود اللاشعور :

يتجلى اللاشعور في أشكال كثيرة ؛ فهناك المنعكسات كالتنفس، ودقات القلب، وعملية الهضم، وحركة الجفن؛ وهذا لاشعور

فيزيولوجي، ومنها مواقف المحبة والكراهية العفوية الناجمة عن المورثات المتراجعة ؛ وهذا لا شعور عائلي، ومنها انفصال الشعور في العصاب حيث يتفرّد جزء من الحياة النفسية، ومنها العادات التي بعد رسوخها تصدر عنا دون شعورنا؛ وهذا لا شعور عادي، ومنها الأساطير والمعتقدات التي يتوارثها الناس وتؤثر في سلوكهم دون علم منهم ؛ وهذا لا شعور جمعي .

أما من الناحية السيكلوجية الصرفة فإن اللاشعور فرض صاغه عالم النفس والطبيب النمساوي الشهير "سيغموند فرويد" (S.Freud 1856-1939) عندما تبين له استحالة فهم الظواهر النفسية سواء أكانت سوية (كالأحلام وهفوات اللسان)، أو مرضية (كالأعراض العصبية) عن طريق الشعور؛ وهو يعبر بصفة عامة عن ذلك النشاط النفسي والعمليات العقلية التي لا يدركها صاحبها ولا يعي أسبابها ولا يعرف عن طبيعتها ووجودها شيئاً .

2. ظهور التحليل النفسي :

أجرى أحد الأطباء المرموقين¹ في فيينا (العاصمة النمساوية) في نهاية القرن التاسع عشر، تجربة على فتاة مصابة بالهستيريا¹، فانتبه

1- وهو جوزيف بروير (Josef BREUER 1842 - 1925)، طبيب وعالم نفس نمساوي درس في جامعة فيينا الطب إلى غاية 1894 ، واهتمّ بالمراقبة العصبية للتنفس، واستعمل التنويم المغناطيسي في المعالجة، إليه تُردّ المبادئ الأولية في اكتشاف اللاشعور وفعاليته وكذا مبادئ التحليل النفسي.

إلى أنها كانت تُتمتَم في حالات الغيبوبة بكلمات بدا أنها تتعلق بهموم شخصية حميمة ، فوضعها في حالة تنويم مغناطيسي²، وأعاد عليها هذه الكلمات فكررتها المريضة وكوّنت تخيلات تتسم بالكآبة . وبعد سرد عدد منها تحسّنت وعادت إلى حالتها الطبيعية، واختفى التحسن في اليوم التالي، ثم عاد فظهر بعد جلسة جديدة ، وواصل علاجه على هذا النحو حتى شُفيت . فما تفسير هذا التحول الإيجابي ؟

لقد خلص من العلاج إلى النتيجة الآتية : لم تكن المريضة تستطيع أن تتبيّن الصلة بين أعراضها وبين أية خبرة في حياتها ، ولكنها كانت في حالة التنويم تكشف فوراً عن الصلة المفقودة؛ أي أن أعراضها كانت ذات معنى وكانت بمثابة بقايا أو ذكريات من مواقف وجدانية ماضية، وعندما كانت المريضة تستعيد في مخيلتها أثناء التنويم موقفاً من هذا القبيل وتتجز في الخيال فعلا نفسياً مكبوتاً كان العرض يزول .

ولما تبين من خلال هذه التجربة وغيرها أن المواقف الوجدانية المنسية مازالت موجودة في النفس و تأثر على الحياة النفسية في جملتها، فقد تحوّل اهتمام الباحثين و المعالجين إلى حثّ المرضى

1- (Hysterie) كلمة يونانية تعني الرحم؛ وكان يعتقد أنه مرض يصيب المرأة فقط. وتتلخص الصورة الإكلينيكية لهذا المرض في شلل مصحوب بتقلصات عضلية وغيبوبة وحالات خلط ذهني .

2- (Hypnose) حالة يخفّض فيها أو يلغى فيها الوعي بحيث يصبح المنوم تحت إحياء المنوم . غير أن فرويد لاحظ أن هذه الطريقة ليس لها أثر علاجي دائم ، ولا يمكن تطبيقها إلا على قليل من المرضى .

على أن يتذكروا أحداث ماضيهم دون تنويمهم ؛ لكن هذه الطريقة كانت شاقة في البداية ، إذ كان المعالج يصطدم (بمقاومة) المريض، وكان يتعين عليه أن يقهر هذه المقاومة حتى يتسنى تذكر الماضي؛ أي أن يقهر (الكبت) كعملية لا شعورية تنشأ عن دفاع المريض ضدّ نزعات لا يرضى عنها. وبذلك نشأت الطريقة الفنية التي تنحصر في تدريب المريض على الإقلاع عن كل موقف نقدي؛ ومن ثم جاءت القاعدة الأساسية أو قاعدة (التداعي الحر) التي تفرض على المريض أن يفصح عن كل شيء مهما بادت له فكرة ما مستهجنة أو سخيفة أو تافهة أو عديمة الصلة بالموضوع ؛ أي أن يقوم بتفسير مستدعيات المريض فيتمّ التطهير¹.

وسرعان ما جاء اكتشاف **التحويل**² ليكمل أسسه الجوهرية، وفي التحويل بدلا من أن يتذكر المريض فإنه يسلك إزاء المحلل كما يسلك إزاء والديه، كما أن التحويل جاء مؤكداً أن ما كان

1- (Catharsis) هي فكرة قال بها أرسطو يعبر بها عن قدرة المسرح على تطهير النفس . وتتضمن مسلمة الحتمية النفسية أن هناك علاقة ضرورية بين نقطة البدء وما يعقبها من خواطر وأحداث نفسية . وسرعان ما تبين لفرويد أن مستدعيات المريض كانت أشبه شيء بتلميح إلى موضوع بعينه ، بحيث يتعين عليه أن يتتبعها حتى يكشف عن المعنى المتضمن فيها .

2- (Transfert) عملية تتحقق بها الرغبات اللاشعورية في خبرة نعيش فيها إزاء فرد بعينه أو أفراد بعينهم وذلك في إطار نمط معين في العلاقة الوجدانية. كاستشعار المريض لأنفعالات معينة إزاء الطبيب.

يُقتل خلف مظاهر العُصاب¹ ليس اضطراباً انفعالياً كائناً ما كان، وإنما هو اضطراب ذو طابع جنسي له جذوره في طفولة المريض وأهمّ مظاهره هي عقدة (أوديب)².

وقد أطلق "فرويد" على هذه الطريقة تسمية (التحليل النفسي)؛ ومن هنا فإن التحليل النفسي فنّ في التفسير يتمّ في موقف يضمّ شخصين، ولذلك كان البحث والعلاج متلازمين كما يقول "لاغاش"³. ثم أن التفسير الذي يكشف عن المعنى اللاشعوري فيما يتمّ استدعاؤه على أنه رغبة، ينبغي أن يسبقه تفسير يكشف عن المعنى اللاشعوري فيما يتمّ استدعاؤه على أنه مقاومة؛ أي بما في ذلك استخدام حيل دفاعية تقصح عن نفسها أثناء العلاج والتحليل النفسي في شكل مقاومات تحول دون الكشف عن الرغبة.

وهكذا يمكن أن نختزل البنية التحتية للتحليل النفسي في دعامتين أساسيتين :

1- (neurose) حالة مرضية ذات أصول نفسية وهي تعبير رمزي لصراع نفسي تمتد جذوره إلى الطفولة وتتميز وظيفته الأساسية بأن يقوم بتسوية بين الرغبة والدفاع.

2- (Complexe d'œdipe) : في الاسطورة اليونانية حسب سوفوكليس فإن(أوديب) يقتل والده ويتزوج أمه دون وعي منه. يعتبر فرويد اكتشاف عقدة (أوديب) من حيث قيمتها العلمية بمثابة اكتشاف النار أو اختراع السيارة .

3- (1903-1972 Daniel LAGACHE) محلل نفسي فرنسي من أهم مؤلفاته:

أ- الدعوى بوجود عمليات نفسية لا شعورية :

إن النتيجة الأولى التي استخلصها "فرويد" من أعمال "بروير" هو الإقرار بوجود نشاطات نفسية لا شعورية تختفي وراء الأعراض العصبية، يقول فرويد : « ..إن مجرد إعطاء معنى للأعراض العصبية بفضل تفسير تحليلي، يشكل حجة دامغة على وجود نشاطات نفسية أو على قبول وجود مثل هذه النشاطات إذا أحببت تعبيراً أفضل [...] وهناك اكتشاف قام به بروير - دون أية مساعدة من أحد - وهو اكتشاف اعتبره أنا أكثر أهمية من الأول، وهو يقدم لنا معلومات أكثر عن العلاقة بين اللاشعور والأعراض العصبية [...] علاقة تتمثل في قيام أحدهما مقام الآخر. إنني أؤكد مع "بروير" هذا الأمر :

كلما وجدنا أنفسنا أمام أحد الأعراض وجب علينا أن نستنتج لدى المريض وجود نشاطات نفسية لا شعورية ، ذلك ان النشاطات الشعورية لا تولد أعراضا عصبية والنشاطات النفسية اللاشعورية بمجرد أن تصبح شعورية فإن أعراضها تزول »¹.

لكن هذه النشاطات ليست قاصرة على الأمراض العصبية، بل تتعداها إلى مجمل سلوكيات الإنسان العادية؛ ذلك أن كبت هذه النشاطات لا يعني انعدامها أو موتها بل تظل حية وفعالة ومؤثرة تعمل جاهدة على الظهور وتحاول أن تعبر عن نفسها في شكل رمزي مقنع،

1-S. FREUD, introduction à la psychanalyse , p,(260 , 261)

فيبدو ذلك في فلتات اللسان، وفي بعض مظاهر الفكاهة وفي أحلام النوم وأحلام اليقظة، كما تظهر في بعض الأمراض النفسية. والسبب في عدم ظهورها بصورة صريحة هو أن الرقيب يمنع ظهورها مكشوفة عارية لكن حالما ضعفت سلطته وسلطانه، كما في حالة الإعياء والإرهاق والتخدير أو السكر أو التتويم المغناطيسي ظهرت هذه النشاطات .

ويمكن تلخيص المظاهر التي تعبر بها الدوافع النفسية اللاشعورية عن نفسها في ما يلي :

- الأحلام : حيث تعتبر مجالا حيويًا وخصبا لتفريغ النشاطات اللاشعورية.

- فلتات اللسان : فقد ينطق الفرد بعكس ما يريد أن ينطق به .

- زلات القلم : وذلك حينما يكتب الفرد كلمات لا يرغب في كتابتها، أو كلمات لها عكس المدلول الذي يرغب ظاهريا في التعبير عنه.

- نسيان تنفيذ المواعيد والأعمال.

- النكتة والسخرية من أشخاص أو مواقف.

- الرسوم والأشكال التي يرسمها الفرد لاشعوريا .

ب- الاعتراف بنظرية المقاومة والكبت :

تبدأ الدوافع اللاشعورية بالتشكل منذ الطفولة؛ و ذلك عندما يقع الطفل تحت ضغط والديه وضغط المجتمع الذي يضع القيود التي تحول بينه وبين تحقيق رغباته. و لما كان الطفل يرغب في الاستقلال بتصرفاته وفي الوقت نفسه يرغب في أن ينال رضا والديه ، فإنه وإزاء

هذا التعارض في الرغبات يعاني صراعاً قوياً لا خلاص منه إلاّ بكبت دوافعه غير المرغوب فيها ونسيانها حتى لا يسبب له تذكرها توتراً وألماً واحباط، إلاّ أن كل هذه الأمور (المنسية) لا تموت بل تعمل عملها في الخفاء وتحاول أن تظهر سافرة صريحة ، لكن وجود ضمير الفرد (الرقيب) يمنعها، ولذلك فإنها لا تظهر إلاّ بصورة مقنّعة ورمزية . أمّا حينما يغفل الرقيب أو يضعف فإنها تجد الفرصة السانحة للظهور ويبدو نشاطها في المرض الشديد أو الإعياء أو التخدير أو النوم العميق أو التويم المغناطيسي .

II / ب دلالة توصيف الجهاز النفسي :

النفس أو العقل في "التحليل النفسي" ليس معطى بسيطاً وإنما هو جهاز شديد التعقيد يتألف من ثلاث منظمات الهو و الأنا و الأنا الأعلى وهذه المنظمات هي في تعارض و صراع دائم. و أغلبها ينشط بطريقة لاشعورية، أما الشعور فإنه لا يشكل إلاّ القشرة الخارجية للأنا. و ليست (النفس) جوهر مفارق للجسم (للبدن)، و الجسم ليس في خدمة الأنا وإنما "الأنا" هو الذي في خدمة الجسم كما سيتضح لاحقاً. و بهذا تكون نظرة التحليل النفسي لما ندعوه "نفساً" مناقضة تماماً للنظرة الكلاسيكية و التي كانت تقوم على فكرة: أن "النفس" أو "العقل" أو "الأنا" - هذه المصطلحات في النظرية الكلاسيكية من المترادفات- هو جوهر بسيط مفارق للجسم (البدن)؛ يتخذ و يتخذ من الجسم وسيلة، و هذه العلاقة بين النفس أو الأنا و بين الجسم تجسدها العبارة الكلاسيكية التالية: "أنا" في "جسمي" كالربان في سفينته"، وهكذا يبدو الأنا سيداً و الجسم آلة

في خدمته. و كان يعتقد أن هذا الأنا يملؤه الشعور و يتصرف دائما على نحو إرادي ، و هو يمثل صورة الإنسان و حقيقته، و قد عبّر أبو الفتح يحيى بن علي بن محمد¹ عن هذا فقال :

« يا خادم الجسم كم تشقى في خدمته

أطلب الربح فيما فيه خسران ؟

أقبل على النفس و استكمل فضائلها

ف"أنت" بـ"النفس" لا بـ"الجسم" إنسان .»

أما في التحليل النفسي المعاصر فإن الأنا هو الخادم للجسم و لغيره من منظمات الجهاز النفسي يقول "فرويد" Freud « .. لكن الأنا المسكين مدعو إلى خدمة ثلاثة أسياد: الهو و الأنا الأعلى و الواقع » . و أجلّ خدمة يقدمها هي خفض التوتر؛ و تحقيق التوازن داخل الجهاز النفسي.

1 - أبو الفتح يحيى بن علي بن محمد كان حكيما شاعرا خدم الملوك السمانية و ندماؤ الأمير خلف بن أحمد وظف الفلسفة و المنطق في الشعر و كان مدافعا عنهما مثل قوله: اتق الله و الزم عرى دينه و بعدهما فاعرف الفلسفة و دع عنك قوما يعيبونها ففلسفة المرء فل السفه

و قوله في توظيف المنطق:

منحتكم صدق المودة كاملا و كان جزائي عندكم ظاهر النقص
كموجة كلية إن عكستها فحاصلها جزئية عند دي الفحص

II / ب / 1 من الصراع إلى التوازن النفسي :

أخي الطالب، يعتقد أصحاب التحليل النفسي أن الطفل يولد مزوداً بطائفة من الدوافع الجنسية والعدوانية والأنانية ، ويتقدمه ونموه، يكتشف ان المجتمع الذي يعيش فيه لا يرضى عن الإشباع المباشر الصريح لمثل هذه الدوافع، بل أن الوالدين والمجتمع بأسره يسعيان إلى تهذيب هذه الدوافع وتوجيهها. ولذلك يأخذ في ضبط هذه الدوافع أو في إخفائها وكبتها ، ومع نموه ينمو ضميره الأخلاقي بديلاً عن السلطة الأبوية ، ويصبح بمثابة الرقيب الداخلي والسلطة الرادعة التي يسعى الطفل لتجنب تأنيبها؛ لذلك تراه يطرد الدوافع والميول والرغبات العدوانية والرغبات الشاذة التي تخدش كبرياءه أو التي تظهره بمظهر غير لائق أمام ضميره فتدفن في أعماق النفس ، وبذلك يبعدها عن حظيرة الذات الشاعرة الواعية¹.

وبناء على ذلك ، علينا أن نتساءل : إذا كان الجهاز النفسي للفرد بهذا التعقيد؛ فما هي درجاته ومستوياته ؟ وما مكوناتها ؟ وما طبيعة إسهامها في التوازن النفسي من عدمه ؟

للردّ على هذه التساؤلات نستعرض - مع فرويد- مجموع مكونات الجهاز النفسي الرئيسية والتي لا تخرج عن أربع : الغرائز

1- نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين ، معجم العلوم الاجتماعية ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1975 ، ص ، 634 .
<http://www.onefd.edu.dz>

الفطرية ، الشعور أو الوعي ، الضمير والقيم الخلقية المكتسبة ، وأخيراً الجانب العميق واللاواعي من النفس .

II / ب / 2 مستويات الجهاز النفسي :

إن الجهاز النفسي مكوّن من مستويات أساسية يسميها فرويد منظمات، ينتج عن العلاقة بينها إما التوازن أو الاختلال في الحياة النفسية و يترتب عن كلّ من الحالتين سلوكيات واستجابات:

* الـ (هو) : يوجد مع الفرد منذ ولادته قبل أن يتشكل لديه، "أنا" و "أنا أعلى"، و الـ(هو) مستودع الطاقات الغريزية ذات المصادر البيولوجية ، ويتميز بافتقاره إلى التنظيم ، ويسير وفق مبدأ اللذة، وتحكمه العمليات الأولية التي يعوزها المنطق وبخاصة مبدأ عدم التناقض؛ إذ نجد فيه النزعات المتناقضة بعضها إلى جانب بعض، كما أنه لا يعرف النهي أو الخير، إنه مجرد من مقولتي الزمان والمكان، بل لا يحتوى إلاّ جملة الأهواء والرغبات التي تنشد دائماً الإشباع¹. فهو يمثل جملة الدوافع الفطرية، و بالأخص العدوانية و الجنسية ، و الميول و الرغبات المكبوتة و التي تطلب الإشباع .

1- يؤكد فرويد على أن القليل الذي نعرفه عن الهو قد تعلمناه من خلال دراستنا للأحلام وتكوين الأعراض العصابية فمعرفتنا به هي معرفة ذات طبيعة سلبية (غير مباشرة) ، والهو بوصفه جملة الطاقات الغريزية بعيد عن جملة الأحكام الأخلاقية ، بل يكون في صراع مستمر معها ، كما أن هذه الطاقات التي لم يقدر لها أن تتجاوز حدوده والتي يبقيها الكبت داخل دائرة اللاشعور لا تعرف الفناء .

* الـ (أنا الأعلى) : هو أحد منظمات الجهاز النفسي، ينشأ

نتيجة خضوع الفرد للتربية لفترة طويلة بعض الشيء. وهو يحقق قدرا من الاستقلال الذاتي، ويبدأ بالتشكل منذ مرحلة الطفولة. ولما كان الأنا الأعلى ينشأ في الأصل "كسلطة" مضادة ومقاومة لل رغبات الغريزية وبخاصة الرغبات الجنسية¹، فهو في أغلب الأحيان ليس مجرد بديل داخلي يحل محل الوالدين ويقوم بدورهما بشكل واقعي ذلك أنه كثيرا ما قد تتناقض صرامة الأنا الأعلى مع ما يمكن أن يتسم به الوالدان من بعض الليونة والتسامح.



فهو يمثل القوى
القمعية و المحرّمات
الأخلاقية و التأثير الأبوي،
الذي تعرض له الشخص
في طفولته.

* الـ (أنا) : يشير في
نظرية التحليل النفسي إلى
ذلك التنظيم النفسي الداخلي

الذي ينشأ نتيجة دخول الفرد منذ طفولته في علاقة مع بالعالم الخارجي

1- والتعيين الذاتي في التحليل النفسي يعتبر الأنا الأعلى هو وريث عقدة (أوديب) وخليفتها ، فبقدر ما ينجح الطفل في مغالبة رغبات أوديبية ويتنازل عنها يكتمل تكوين الأنا الأعلى .
<http://www.onefd.edu.dz>

وتأثره به؛ والأنا هو الساحة التي يحتدم فيها الصراع بين رغبات الهو الغريزية المؤسسة على مبدأ اللذة والتي تتشد التحقق، ومتطلبات الأنا الأعلى المعبرة عن السلطة الأبوية والقيم الخلقية والدينية. إن كان الأنا يستمد طاقاته من **الهو** ويعمل على خدمته ، فهو يراعي في الوقت نفسه العالم الخارجي ويستند إليه، ولإدراك فاعلية بالنسبة للأنا كفاعلية الغرائز بالنسبة للهو. **وإذا كان الهو يسير وفق (مبدأ اللذة)، فإن الأنا يسير وفق (مبدأ الواقع)؛** ويرتبط ذلك بنمو جملة الوظائف الذهنية من إدراك وذاكرة وتخيل وذكاء. ولأن الأنا ينشأ من الهو إلا أن ما يحققه من استقلال ذاتي يمكنه من إرجاع إشباع مطالب الهو الغريزية وكتبها واستبعادها من ساحة الشعور، بل والعمل على منعها من التحقق وذلك باستخدام مختلف أساليب الدفاع؛ إما بالنفي إلى اللاشعور، أو بتحقيقها بأساليب مقبولة اجتماعياً وأخلاقياً. ولذلك نجد أن جزءاً كبيراً من الأنا يظل لاشعورياً وهو الذي يقوم بالكبت والدفاع والرقابة في الأحلام؛ فالأنا يتفاعل مع الهو لأنه منشؤه، ومع الأنا الأعلى لأنه منشؤه، ومع الواقع لأنه يستند إليه¹.

وقال عنه "فرويد" «نشأ من الطبقة القشرية للهو و هو الطبقة المهيأة لاستقبال المنبهات والتخلص منها وهو لذلك على اتصال مباشر بالعالم الخارجي وهو الجزء الذي يربطنا بالواقع» (انظر مخطط الجهاز النفسي ص 132)

1- يقول فرويد: "يستمد الأنا طاقاته من الهو ، وقيوده من الأنا الأعلى ، وعقباته من العالم الخارجي" ، وأنه بذلك .. "يخدم ثلاثة سادة طغاة" . S.FREUD, ibid , p , 17 . <http://www.onefd.edu.dz>

* **الـ (لاشعور) :** اعتبر "فرويد" اللاشعور، في وصفه الأول للجهاز النفسي؛ **منطقة من الحياة النفسية** إلى الجانب الشعور و ما قبل الشعور، ويمثل الجانب المظلم والعميق من النفس؛ فيه تُسجن الرغبات المحرمة، ومنه تنطلق النشاطات الخفية لتؤثر على الحياة النفسية والسلوك على نحو سويّ أو مرضي. و منذ عام 1925 أدمج الوصف القديم في الوصف الجديد الذي حدد فيه الجهاز النفسي على أساس **الـهـو** و**الـأنا** الأعلى و**الـأنا** معتبرا أن النشاط الذي تقوم به هذه المنظمات والصراع الذي ينشأ بين متطلبات **الـهـو** ومطالب **الـأنا** الأعلى والتوازن الذي يسعى **الـأنا** إلى تحقيقه، كل ذلك يتم على نحو لا شعوري. والشعور لا يمثل سوى نشاط **الـأنا** عندما يكون في علاقة مع الواقع. و بهذا يكون أغلب نشاطنا النفسي نشاطا لا شعوريا.

III من الليبيدو¹ إلى الغريزة العدوانية :

لقد اعتبر التحليل النفسي أن جميع دوافع الإنسان ورغباته يمكن ردها إلى هاتين الغريزتين فقط: غريزة الحياة (أو الغريزة الجنسية)، وغريزة الموت (أو العدوان والتدمير).

III / أ دور الليبيدو : و تتجلى غريزة الحياة في كل ما يقوم به الإنسان من أعمال إيجابية بناءة قصد المحافظة على كيانه واستمرار وجوده . ولقد توسع فرويد في مفهوم الغريزة الجنسية² فلم يقصرها على التناسل أو التكاثر، وهي غريزة توجد في الطفل منذ ولادته وليست كما يعتقد البعض أنها لا تظهر إلا في سن البلوغ؛ لقد جعل من الغريزة الجنسية مصدر كل محبة وحنان، كما أنها تشمل جميع مظاهر اللذة الحسية والعاطفية. فاللذة التي يجدها الطفل من عملية الامتصاص لذة جنسية لأنها

1- (Libido) لفظ يفيد في اللغة اللاتينية : الشوق ، الشغف ، الشهوة وما إليها ؛ وهو عند فرويد الطاقة الدافعة في غريزة الجنس التي يقصره عليها دون غيرها من الغرائز ..

2- أو الليبيدو أو الشبقية الإيرووطيقية من (Eros) : هو إله الحب عند اليونان القدامى وعند أفلاطون يرمز إلى مدلولين (الحب السامي) و(الغريزة الجنسية) في الأسطورة اليونانية (Eros) هو ابن (Poros) آلهة الغنى و(Penia) آلهة الفقر؛ ومعنى ذلك أن الحب بقدر ما هو غني بالعواطف هو فقير إلى ما يحب . أما غريزة الموت فتعرف في المصطلح الفرويدي بـ(thanatos) .

تؤدي إلى التخفيف من حدة التوتر الجسمي الذي يحس به الطفل، واللذة التي يشعر بها الطفل من حنان أمه لذة جنسية.

في الجملة تدل عبارة الغريزة الجنسية في أبحاث التحليل النفسي على : - الميول الجنسية التي تستهدف التكاثر .

- مظاهر الحب والود بين الآباء والأبناء ، وحب الذات، وحب الأصدقاء ، وحب الحياة ، وحب الإنسانية جمعاء ¹.

- مظاهر اللذة الوجدانية؛ كاللذة التي يشعر بها الطفل

في عملية الامتصاص والإخراج ونحوهما من النشاط الحركي .

III / ب دور الغريزة العدوانية :

أما الجانب الآخر من الدوافع فيتمثل في غريزة الموت التي تظهر في السلوك التخريبي والهدم والعدوان على الغير (كما في الحرب)²، والعدوان على النفس (كما في الانتحار)؛ وعند فرويد فإن العدوان ينشأ من كبت الميول المختلفة، ثم تطورت هذه الفكرة عنده وأصبح ينظر إلى العدوان على أنه استعداد غريزي مستقل في تكوين الإنسان النفسي. وعلى ذلك فالدوافع للسلوك العدواني فطرية، ويصبح الإنسان بناء على هذه الفكرة عدوًّا لأخيه الإنسان بالفطرة والغريزة وتتنحصر رسالة المجتمع في تهذيب هذه الدوافع

1- عبد الرحمن محمد عيسوي ، علم النفس الفسيولوجي، النهضة العربية ، 1974 ، ص، 122، 123

2- نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1975 ، ص ، 497 ، 498 .

وترويضها. ولا تبدو غريزة العدوان في اعتداء الإنسان على أخيه الإنسان وحسب، وإنما تبدو أيضا في الرغبة في تدمير الجمادات وتحطيمها ؛ فالطفل قد يحطم لعبته وأثاث غرفته، وليست الحروب وما تجلبه من دمار لمظاهر الحضارة المادية والإنسانية إلاّ مظهراً من مظاهر السلوك العدواني الغريزي.

وخلاصة القول فإن فرويد يفسر السلوك الإنساني لدى الطفل

كما عند الراشد، ولدى الشخص السويّ كما عند الشاذ والمريض، ويفسر سلوك الفرد كما يفسر سلوك الجماعة، ويفسر إبداع الفنانين والعلماء، من خلال هاتين الغريزتين وبما يقوم بينهما من صراع. فإحداهما تميل إلى البناء وهي غريزة الجنس والأخرى تميل إلى التدمير¹، وللمجتمع وظيفة هامة في تغليب وظيفة البناء في الإنسان على وظيفة التخريب.

1- توجد هاتان المجموعتان من الغرائز متحدثتين ومختلطتين الواحدة بالأخرى. وتعتبر السادية (Sadisme) أي التلذذ من إحداث الألم للغير، والمازوشية (Masochisme) أي التلذذ من إيلاام الذات من الأمثلة النموذجية التي تدلّ على اتحاد هاتين المجموعتين من الغرائز؛ فالسادية عبارة عن اتحاد الغرائز الجنسية مع غرائز الهدم الموجّهة نحو العالم الخارجي، بينما تنشأ المازوشية عن اتحاد الغرائز الجنسية مع غرائز الهدم الموجّهة ضدّ الذات.

IV / أبين المنهج العيادي والتفسير النظري :

لنتأمل؛ أخي الطالب؛ في الوضعية المشكلة التالية :

(1) كتب فرويد¹: « ..إن تقسيم الحياة النفسية إلى ما هو شعوري وما هو لاشعوري هو الفرض الأساسي الذي يقوم عليه التحليل النفسي. وهذا التقسيم وحده هو الذي يجعل من الممكن للتحليل النفسي أن يفهم العمليات المرضية في الحياة العقلية- وهي أمور شائعة كما أنها مهمة- وأن يجد لها مكاناً في إطار العلم »².

(2) و كتب :«..وجدنا أنه ليس من الممكن من الناحية العملية أن نضع حدّاً فاصلاً بين ما هو سويّ من الناحية النفسية وبين ما هو شاذ؛ فليس لهذا التمييز، بالرغم من أهميته العملية، إلا قيمة اصطلاحية فقط، وبناء على ذلك فقد أعطينا لأنفسنا الحق في محاولة الوصول إلى فهم الحياة السوية للعقل عن طريق دراسة ما يصيب العقل من اضطرابات »³.

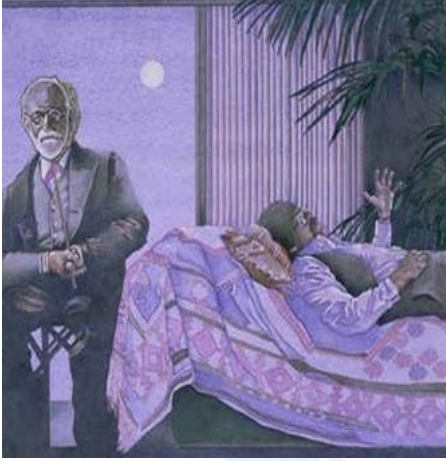
1- هو رائد مدرسة التحليل النفسي وقد سبق التعريف به في مواضع أخرى .

2- فرويد ، الأنا والهو، ترجمة / م.ع.نجاتي، دار الشروق، ط 4، بيروت 1982، ص ، 25.

3- فرويد ، معالم التحليل النفسي ، ترجمة / م.ع.نجاتي ، د م ج ، ط 5 ، الجزائر 1986 ، ص ، 121.

(3) وكتب في موضع ثالث : «..غير أنني أودّ أن أضيف بضع كلمات على سبيل النقد والتعقيب. فلقد يسأل سائل إلى أي حدّ وصل اقتناعي أنا بصحة الفروض التي ذهبت إليها؟ وعن هذا أجيب بأنني أنا نفسي غير مقتنع، وأنني لا أعمل على إغراء غيري من الناس بالإيمان بتلك النظريات، أو بعبارة أدق، إنني لا أدري إلى أي حدّ يبلغ يقيني منها»¹.

فكيف يمكن تبرير



لوحة تظهر فرويد في جلسة تحليل نفسي

هذا التضارب في الاعتقاد بصحة نتائج التحليل النفسي من جهة ، وبنسبيتها ومحدوديتها من جهة أخرى ؟ ألا يوحي ذلك بمشروعية التساؤل عن القيمة العلمية للمنهج الذي يتبعه المحلل النفسي من أجل معرفة الرغبات والميول اللاشعورية وما تبديه من نشاط سويّ أو

غير سويّ ؟ ثم ما الذي تستطيع فرضية اللاشعور الفرويدية أن تفسره من السلوك الإنساني وهي لا تقدر أصلاً أن تلاحظ ما هو شعوري ،ناهيك عمّا هو لاشعوري ؟

1- فرويد، ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة/ إسحق رمزي، دار المعارف 1980، ص100.

1. التحليل النفسي كمنهج عيادي :

ممّا لا شك فيه أنّ التحليل النفسي كشف عن فعاليته وجدواه في علاج بعض الاضطرابات العصبية¹ كما كشف عن مدى تأثير تجارب الطفولة المبكرة في سلوكيات الراشدين (وهذا إنجاز تربوي)، وأصبحت الدراسات والنتائج التي استخلصها التحليل النفسي لقضايا اللاشعور تنير الكثير من الجوانب في سلوك المجرمين والمنحرفين والمجانين والفاشلين، وقد عززت هذه الدراسات الجانب الإنساني فأصبح عدد من المنحرفين يدخلون المستشفيات بعد أن كان يُلقى بهم قديماً في غياهب السجون، أو يظلّون عرضة للسخرية والامتهان .

2. نظرية اللاشعور من الوجهة التفسيرية :

إن إجرائية فرضية اللاشعور تبرز في أن كثيراً من مظاهر الحياة النفسية لا يمكن أن تفسر عند الوقوف عند الحياة الشعورية في مظاهرها المختلفة. ولذلك فإن مجهود المحلّل النفسي يتركز على ملاحظة مظاهر الشعور ذاتها ملاحظة دقيقة ليتمكن من أن يكتشف المظاهر

1- ولعل انتشار العيادات النفسية في مختلف أنحاء العالم بوتيرة سريعة لا مثيل لها بفعل تطور الطب النفسي، هو أهم إنجاز عملي لمدرسة التحليل النفسي؛ وأصبحت كثير من الأمراض والعقد والاضطرابات التي كانت مستعصية قابلة للعلاج بنسبة كبيرة . وتشهد تقنيات العلاج الإكلينيكي في هذا المنهج في كل يوم تحسينات ترتقي به إلى أن يكون منهجاً طبياً ذا فاعلية كاملة .

اللاشعورية التي تختبئ وراءها؛ إنها تساعدنا على إلقاء الضوء على حالات المرض النفسي، أو على حالات الاضطراب النفسي في مستوياتها المختلفة من أزمت نفسية ومظاهر تثبيت أو نكوص في الحياة النفسية.¹

IV / ب الفرضية والفرضيات المضادة :

إن المبالغات التي حفل بها التحليل النفسي مع مؤسسه الرائد قد أدت إلى الشك في الطبيعة العلمية لفرضية اللاشعور، بل أن تلاميذ المدرسة كانوا أول من شق عصا الطاعة ؛ قد أرجع ألفريد آدلر (1870 A. Adler-1937) اللاشعور، إلى **الشعور بالقصور**، وليس إلى الليبيدو، فالمصاب بقصور عضوي يسعى إلى تعويض هذا القصور وتغطيته عن طريق الأعراض العصبية، وكل ما فسّره فرويد بالكبت فسّره آدلر بعقدة القصور والتعويض. أما كارل "يونغ" (1875 K. Young-1961)، فقد عارض هو الآخر أستاذه ورأى أن النظرية الجنسية كما وضعها "فرويد" غير كافية لأنها لا تتناول إلا جانباً واحداً من المشكلة، فينبغي أن تضاف إليها الحاجة إلى السيطرة. كما أنه ميّز بين نوعين من الناس: نوع يتوجّه إلى الأشياء أكثر مما

1- لقد بدأ التحليل النفسي يتعامل مع المرضى لينتقل إلى تفسير الشخصية السوية ، ليرتقي إلى محاولة تفسير كل النشاطات الإنسانية بفرضية اللاشعور . و كما انه اعتبر الغريزة الجنسية هي قطب الرchy في توجيه وتسيير وتنظيم الحياة الفردية والجماعية ، فما ميولنا ورغباتنا وسلوكاتنا إلا أنفاس لهذا الوحش الضاري ألا وهو

يتوجّه إلى نفسه، ويتوجّه إلى الخارج ليتكيف معه (وهو المنبسط)، ونوع يتوجّه نحو نفسه ويميل إلى الخيال والتأمل، ويكون نشاط الليبيدو عنده متوجّهاً نحو ذاته (وهو المنطوي). وانتهى "يونغ" إلى وضع نظرية في اللاشعور الجمعي؛ إن لاشعورنا ليس مليئاً بالأزمات التي نكون قد عشناها أثناء طفولتنا فقط، بل وكذلك الأزمات التي مرت بها الإنسانية جمعاء، وفضلاً عن ذلك، فقد بلغ الاعتراض على نظرية التحليل النفسي إلى حدّ أن هناك من أنكر حتى وجود لاشعور¹.

إن محاولة التحليل النفسي، مع فرويد على الخصوص، أن يجعل من فرضية اللاشعور نظرية علمية لم تحقق النجاح المأمول لها إلاّ من الناحية التطبيقية كما رأينا، أمّا اعتبارها في مرحلة متأخرة فلسفة عامة

1- فالطبيب العقلي النمساوي ستيكال (Stekel) يقول : " لا أومن باللاشعور. لقد آمنت به في مرحلتي الأولى. ولكنني بعد تجاربي التي دامت ثلاثين سنة وجدت أن كل الأفكار المكبوتة إنما هي تحت شعورية (تحجز الشعور)، وأن المرضى يخافون دائماً من رؤية الحقيقة ". [نقلاً عن/ جمال الدين بوقلي حسن ، قضايا فلسفية ، ط 5، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1981، ص ، 65]

وقد رفض سارتر الفيلسوف الفرنسي الوجودي (Jean-Paul-Sartre 1905-1980) فكرة اللاشعور معتبراً أن السلوك الإنساني يجري دائماً في مجال الشعور :

- أولاً : لأن الرغبة المكبوتة لا يمكن أن تتخفى إلاّ إذا كانت مشروعاً للتخفي .

- ثانياً : لأن تشبئ الحياة النفسية بتعارض وحرية الاختيار .

- ثالثاً : لأن التحليل النفسي لا يجعل المريض يشعر بنفسه وإنما يعطيه معرفة بها ، وهذا يتعارض مع مشروع الإنسان الجوهري الذي يختاره لحياته ، والذي يعيشه ويشعر به .

مطلقة قادرة على تفسير كل النشاطات الإنسانية من فنون وآداب وعلوم، فإنها دلت على طموح يتجاوز واقع الأشياء؛ لأنه أراد أن يفسر الظواهر على تنوعها بمبدأ واحد هو اللاشعور، وأن يفسر كل نشاطات اللاشعور بمبدأ واحد هو الليبيدو، فحاول بذلك أن يفسر الأعلى بالأدنى، مؤسساً مذهباً مادياً صرفاً من الوجهة الفلسفية.

حل المشكلة:

يتّضح إذن من خلال كلّ ما قدّمناه أن الحياة النفسية تتأسّس على ثنائية متكاملة قوامها الشعور واللاشعور ؛ الشعور بحوادثه وأحواله التي بدونها لا يتأتّى للإدراك وسائر الوظائف العقلية الأخرى أن تتفاعل فيما بينها أو مع العالم الخارجي، واللاشعور بمخزونه المتنوّع كرصيد ثريّ يمكن في آن واحد من استكشاف تاريخ الفرد وكذا تقويم سلوكه. وبذلك فإنه لا ينبغي النظر دائماً إلى الشعور على أنه ساحة صراع بين متناقضات، بل بوصفه آلية للتوازن والتكيف والمعرفة، ولا إلى اللاشعور باعتباره سجنًا لرغبات مكبوتة قد تعصف بكيان الشخصية، وإنما كطاقة يمكن توجيهها نحو الإبداع العلمي والفني.

وتظلّ نظرية اللاشعور بوجه خاصّ، في سياق التحليل النفسي، بمثابة اجتهاد أدّى إلى اكتشافات مضيئة وهامة حول النفس البشرية ومعالجة كثير من اختلالاتها على مستوى السلوك (وهو ما لا يمكن إنكار إنجازاته على الصعيد العيادي)، ولكنه اجتهاد مع ذلك، أقرب - حتى يثبت العكس - إلى الافتراض الفلسفي منه إلى النظرية العلمية المتكاملة .

استنتاج :

- الشعور بنوعيه (العفوي والتأملي يميز الإنسان عن الحيوان .
- الشعور عند ديكارت يستغرق كل الحياة النفسية و الشعور بالأنأ هو الحقيقة التي تعلو فوق كل شك. و هو مفارق الجسد.
- الشعور في النظرة الحديثة ليس مفارقا الجسد؛
- فرويد يقسم الحياة النفسية إلى شعورية ولاشعورية ويحدد اللاشعور انطلاقا من الكبت.
- الأخطاء، و زلات القلم، و فلتات اللسان، والأحلام هي الطريق الأساسي لمعرفة اللاشعور.
- الحياة النفسية جهاز يتألف من ثلاثة منظمات (هي الأنأ الأعلى و الأنأ و الهو) و تقوم هذه المنظمات بوظائف متعارضة، والأنأ مدعو في كل لحظة لتجاوز هذا التعرض و تحقيق توازن في الحياة النفسية .
- إن التحليل النفسي تقنية في العلاج، و مهج للدراسات النفسية و نظرية في تفسير السلوك.
- اللاشعور مازال فرضية فلسفية رغم اتساع القائلين به، لكونه مفهوما كيفيا غير قابل للقياس وغير قابل للملاحظة والتجريب، بالإضافة أنه يتضمن من المعنى ما هو محل خلاف، وإذا كان فرويد تحدث عن اللاشعور الفردي فإن يونغ أضاف اللاشعور الجمعي. و إذا كان فرويد قد رد وجوده إلى الكبت الجنسي فإن أدلر رده إلى الشعور بالقصور.
- بالإضافة أن هذه الفرضية لم تحظى بإجماع الفلاسفة و العلماء، إذ أبطلها الآن على أساس أن الحياة الأخلاقية تقوم على اعتبار وجود "أنأ" واع و مسؤول، أما سارتر فقد أبطلها انطلاقا من كون الإنسان "ذات" محكوم بالحرية، في حين أن اللاشعور يتعارض مع هذه الحرية.

الموضوع : يعتقد "فرويد" وتلاميذه أن « فرضية اللاشعور »
فرضية علمية، وتقرّر لديك بيان فساد هذا الاعتقاد، فكيف تثبت
بطلانه؟

طريقة الاستقصاء بالرفع / المطلوب إبطال رأي يبدو سليما.

1. طرح المشكلة:

المسألة: لقد شاع عند كثير من علماء النفس و خاصة لدى
المشتغلين بالتحليل النفسي، منذ بدايات القرن العشرين، أن التحليل النفسي
علم و أن فرضية اللاشعور فرضية علمية و مشروعة، و قد دافع فرويد
نفسه عن هذه الفكرة.

إبراز التعارض: لكن في مقابل ذهب كثير من المفكرين
والفلاسفة المعاصرين إلى النظر للاشعور كفرضية فلسفية،

السؤال: ومن هذا المنطلق يمكن التساؤل: هل فعلا أن
اللاشعور فرضية علمية؟ أليست مجرد فرضية فلسفية تساعدنا على فهم
السلوك الإنساني أكثر مما تساعدنا على تفسيره؟

١١. محاولة حل المشكلة:

عرض منطق الأطروحة

إن فكرة اللاشعور لم تكن جديدة عندما دافع عنها فرويد، بل قال بها فلاسفة و أدباء كثيرون قبله، لكن ما جاء به التحليل النفسي و لم يكن شائعاً، هو أن اللاشعور ليس مجرد ضعف أو غياب للانتباه، بل هو منظمة نفسية لها وجود سابق عن الشعور نفسه و تؤثر فيه و تتحكم بكثير من موضوعاته، ويتألف اللاشعور عند المحللين النفسانيين من الميول والأهواء المكبوتة و تؤثر على نحو لا شعوري في حياتنا الواعية. واللاشعور بهذا المعنى يكون منفصلاً عن الزمن الموضوعي والواقع الخارجي، وهو يستجيب لمبدأ اللذة فقط، و يتجلى في الهفوات والزلات والأعراض العُصابية والأحلام، وقد اعتبر فرويد اللاشعور فرضية علمية تساعدنا على فهم و تفسير الظواهر النفسية التي لا نجد لها أسباباً معروفة في الحياة النفسية الواعية.

إبطال الأطروحة

اعتبار اللاشعور فرضية علمية يستدعي أولاً تحديد خصائص ما يمكن يوصف بأنه علمي. في الحقيقة أن العلماء والفلاسفة منقسمون بشأن هذه الخصائص، لكنهم على الأقل يتفقون حول ثلاثة منها:

- 1- الانسجام المنطقي 2- أن ما هو علمي ليس مجرد وصف للأحداث
- 3- القابلية للتحقق (إثبات / تفنيد) التجريبي. ومن هذا المنطلق وكي يعتبر القول باللاشعور فرضية علمية، يجب أن يكون مفهوم اللاشعور

خاليا من أي تعارض في حين أن الواقع يثبت خلاف هذا، حيث أن أهل الاختصاص ليسوا متفقين على مفهوم اللاشعور أو محتواه. فبالنسبة لأدلر أن اللاشعور ليس مرده إلى الليبيدو بل هو راجع إلى الشعور بالقصور فالمصاب بقصور عضوي يسعى إلى تعويض هذا القصور وتغطيته عن طريق الأعراض العصبية وكل ما فسره فرويد بالكبت فسره أدلر بعقدة القصور وبالتعويض. أما يونغ أضاف لاشعور جمعي إلى جانب اللاشعور الفردي الذي تحدث عنه فرويد معتقدا أن اللاشعور الفرويدي غير كاف لتفسير الحياة النفسية. وهذا التعدد والتعارض في التصورات يعصف بخاصية الانسجام المنطقي المطلوبة في الفرض العلمي.

إن اللاشعور مفهوم كفي وغير قابل للملاحظة والتجريب، وهذا يعني أننا لا نستطيع التحقق من صدق الفرضية على نحو تجريبي.

عرض موقف أنصار الأطروحة وإبطاله

إن أنصار التحليل النفسي ما زالوا يدافعون عن فكرة أن اللاشعور فرضية علمية و مشروعنة مثلما فعل فرويد في بداية القرن 20 وهم في هذا الزعم يستندون إلى جملة من المبررات. منها 1- أن اللاشعور يساعدنا على فهم الحياة النفسية بشكل أفضل مما كانت عليه في السابق. 2- وهو يفسر كثيرا من الأعراض المرضية التي ظلت لزمن طويل دون فهم أو تفسير. 3- ويمكن التحقق من صدق هذه الفرضية، و ذلك إذا تمكن التحليل النفسي من مساعدة كثير من المرضى على

الشفاء من الأعراض المرضية تكون هذه النتيجة دليلا على صدق الفرضية.

إن هذه المبررات تؤكد شيئا واحدا هو أن اللاشعور فعلا ساعدنا على فهم جوانب من الحياة الإنسانية ظلت مجهولة لزمان طويل، لكن هذا لا يقدم أي دليل على علمية هذه الفرضية. حيث أن الفهم الذي يؤدي إليه اللاشعور يقوم على "التأويل" والتأويل يفترض أن المعطيات هي رموز تخفي وراءها معاني ودلالات، وبدل أن يقتصر المحلل على تحديد العلاقة السببية بين الظواهر، فإنه يؤول المعطيات بحسب ما يعتقد المحلل. فإذا كان المحلل فرويديا، فإنه يميل دائما إلى تأويل الأعراض والزلات والأحلام تأويلا جنسيا أما إذا كان أدليريا، فإنه يؤول جميع هذه المظاهر، على أنها تعويض عن القصور الذي يعانيه الشخص. و من هذا المنطلق فإن تقنية التأويل المعتمدة في التحليل النفسي - والتي بدونها يفقد اللاشعور كل قيمة له - لا تؤدي إلى نتائج مجمع عليها، في حين أن موضوعية العلم لا بد أن تحقق الإجماع، و بعبارة أخرى أن التأويل سيظل دائما أمرا ذاتيا، و يجب الإشارة إلى أن محتويات اللاشعور سواء التي حددها فرويد أو يونغ أو أدلر، ليست سوى - تأويلات خاضعة لقناعات ذاتية، وليس لجملة من الملاحظات التجريبية. أما أن يتمكن بعض المرضى من الشفاء بناء على التسليم بوجود حياة نفسية لاشعورية، واستخدام بعض التقنيات، لا يثبت علميتها بقدر ما يثبت أهميتها في العلاج. وليس كل ما يثبت نجاحه في العلاج يكون علميا.

III. حل المشكلة / التأكيد على مشروعية الإبطال

الاستنتاج : إذن تظل فرضية اللاشعور في سياق التحليل النفسي اجتهدا أدى إلى اكتشافات مضيئة وهامة حول النفس البشرية ومعالجة كثير من أمراضها على مستوى الشعور و السلوك (وهو ما لا يمكن إنكار إنجازاته على الصعيد العيادي) و رغم هذا لا يمكن الإدعاء أنها فرضية علمية.

موقع المشكلة من الحل : و قد تبين من خلال محاولة حل المشكلة أن التعارض الذي تضمنته المشكلة المعالجة هو تضاد، و لهذا كان علينا بعد إبطال الأطروحة القائلة أن اللاشعور فرضية علمية، أن نثبت أنها فرضية فلسفية، لأن المتضادان لا يكذبان معا.

الجواب: و بهذا اتضحت الإجابة أن فرضية اللاشعور اجتهدا، أقرب إلى الافتراض الفلسفي منه إلى النظرية العلمية المتكاملة .